كيف يفكر قادة "الإخوان؟"

علي عبدالصادق

كاتب وباحث متخصص في الفكر السياسي

كثيرة هي التساؤلات التي تبحث عن ماهية "الذات الاخوانية" من حيث أنماط تفكيرها وعقلها الجمعي، وكذا وعيها تاريخياً، وواقعها الراهن منذ ثورة 30 يونيو 2013.

فحينما تصطدم بانتشار خطاب العنف وتبريره وتنفيذه، وتفاجأ بخطابات من قبيل إن "محمد مرسي سيعود خلال العام الحالي أو القادم على أقصى تقدير"، أو تسمع أن "مرسي وهب حياته ثمناً لانتصار الحق، ووضع مصر على مسار ديمقراطي يحميها من المؤامرات"، أو حين يقال إن "مرسي له في أعناقنا بيعة، والوفاء بالبيعة يتطلب العمل على إخراجه من محبسه، وعودته للحكم مهما كلفنا ذلك من تضحيات، ولو كانت أرواحنا فداء للوفاء بعقد البيعة".

وحينما تفاجأ بنائب المرشد العام خيرت الشاطر في إحدى جلسات محاكمته يخرج عن صمته قائلاً: "جماعة الإخوان سيلتقون برئيسهم محمد مرسي في ميدان التحرير قريباً"، فلابد من التساؤل: أي تفسيرات يمكن أن تحلل عقل قادة الإخوان.

ليس هذا فحسب، بل يصبح التساؤل أكثر تبريراً حين استحضار منصة اعتصامي رابعة والنهضة، فتصدم بقول أحد وُعَّاظِهم يعلن أن "الذي يشكك في عودة مرسي كأنه يشكك في الله"، أو أن "مرسي مؤيد برؤيا أحد الصالحين وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قدمه للصلاة بالمؤمنين في مسجد رابعة"، مروراً ببيان للجماعة مفاده: أن "مرسي لم يعد شخصاً عادياً وإنما صار رمزاً لمبادئ وقيم سامية ناضلت من أجلها البشرية عبر الأجيال"، وليس آخراً حينما تقرأ عن القيادي الإخواني جمال عبد الستار ما نصه: "لسنا في حاجة إلى تنظير أو تبرير، فنحن بعد عام واحد أشد اقتناعاً بمواقفنا، وأسعد حالاً بخيارنا وأعمق إدراكاً بعدالة قضيتنا ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا لاخترنا نفس الطريق"... إلخ.

مجمل ما سبق، يؤكد أن "الذات الاخوانية" في تفكيرها ووعيها وممارساتها منذ ثورة 30 يونيو في سعي دائب إلى محاولة امتصاص ما جرى وحماية كيانها التنظيمي من التفكك والانهيار، على الرغم مما لحق به من جانب، وقطع أي محاولة للطعن على الجماعة وكوادرها وأعضائها من جانب آخر؛ فلم يكن – من وجهة نظرهم - السقوط السريع للجماعة بعد عام واحد من تولي السلطة في مصر، وما آل إليه حاضرها سوى نتيجة لتآمر الآخرين عليها.

ولعل الهدف الأخير هو بقاء "الذات الإخوانية"، كما هي بؤرة البؤر داخل رحم الأم، أي جماعة الإخوان المسلمين. وهنا تكمن براعة هذه "الذات" في إعادة إنتاج الماضي الذي لم تتقمص سواه منذ نشأتها وحتى الآن.

إن هناك عدة تفسيرات يمكن الجمع بينها لتحليل هذا العقل الإخواني البعيد عن الواقع بكل تفاصيله وتلك الحالة الوهمية التي يتخيلها، لعل من أبرزها:

أولاً: وحش الأيديولوجيا

من السهل أن يتحول العقل إلى أسطورة/ خرافة، وذلك حين يفقد استقلاله التام ويلتهمه ما يسميه عالم الاجتماع الألماني "ماكس هوركايمر" "وحش الأيديولوجيا"، أو ما يطلق عليه البعض "العقل المستغل

من والأسير للأيديولوجيا"، وهو العقل الذي يقع فريسة للتلاعبات الأيديولوجية والنزعات الفكرية التي تعصف به، خاصة الملتبسة بالدين والمسكونة بالأحلام والطوباويات، وهي بقدر ما تصبغ جل اعتقادات الإنسان بلباس أسطوري/ خرافي، تعمل كأقنعة تتخفى وراءها رؤى وتصورات يراد تحصينها خلف ما يتم خلعه عليها من قداسة تدخل بها في دائرة "ما لا يمكن التفكير فيه" أو النيل منه.

هذا ما تطالعنا به أدبيات الجماعة منذ أيام مؤسسها حسن البنا وإلى الآن، فـ "الذات الإخوانية" نشأت وتشبعت على أسطورة صنعتها بنفسها ولنفسها باعتبارها صلة السماء بالأرض، وأنها جاءت بالعناية الإلهية وقضاء الله وقدره لحمل رسالة الوحي إلى الإنس والجن.

ولأن الأساطير تهيمن على العقل دهوراً بفعل التناغم بين الأسطوري والديني، ولأن اللاواقعي يهيمن على الواقعي كما يخبرنا التاريخ؛ فإن "الذات الاخوانية"، والتي وصمت بالإرهاب وقياداتها إما في السجون أو في الخارج، أدركت أن ما جرى ويجري لها يهدد بقاءها ومصيرها، ومن ثم فإن البقاء يتطلب إعادة إنتاج أسطورة هذه "الذات" مرة أخرى في مناخ يلائمها اعتادت عليه في تاريخها، ولم تعرف سواه إلا في وقت قصير بعد "الثورات" العربية.

ولهذا نجد انتشاراً مكثفاً واستخداماً غير مسبوق لهذا الخطاب الأسطوري من قبيل قول أحدهم عن الجماعة: "فإن أحسنت وتراصت من جديد فستستطيع الإخوان بمقدراتها وإمكانياتها الهائلة ألا تزيل الانقلاب فحسب بل تكون جماعة تملك دولاً وأسلحة دمار شامل.. إن شئت القول جماعة ترتعد قصور الملك منها في كل العواصم لما تستطيع فعله"، ولا مانع في هذا الاطار أيضاً من "أسطرة" الرئيس المعزول والإيحاء الدائم والمتكرر بعودته باعتباره جزءاً من بقاء أسطورة "الذات الاخوانية" بكيانها وتنظيمها.

ثانياً: خطاب المحنة والنصر

بموازاة ذلك أيضاً تستدعي "الذات الإخوانية" من ذاكرتها المشحونة بالأيديولوجيا خطابات المحنة والنصر ومفردات الثبات والصبر حتى تبقى مربوطة بالحبل السري للجماعة من قبيل "اثبتوا أيها الصادقون على الحق الذي جعلكم الله حراسه"، إنها "الشدة التي تسبق الحسم الإلهي والنصر الرباني"، إنها "المحنة التي يفرض المجرمون طبيعتها ظناً منهم أنهم الذي يتحكمون في مصائر الناس فتكون معها النهاية بنصر مبين"، وغير ذلك في حضور أفكار سيد قطب في الذهنية الإخوانية خاصة المتعلقة منها بالنصر كقوله "قد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الفئة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة لا يستقر معها قرار من أجل هذا، ومن أجل ما لا يعلمه إلا

> **ثمة ثلاثة مداخل تتشابك مع بعضها البعض لتفسير عقل وذات جماعة الإخوان، أولها سيطرة وحش الأيديولوجيا، وثانيها الاستدعاء الزائف لخطاب المحنة والنصر، وثالثها إشعار الآخرين بالقدرة عبر ممارسة العنف .**

الله يبطئ النصر فتتضاعف التضحيات وتتضاعف الآلام"، وذلك في تدوير وتبرير وتغطية على فشل الجماعة.

ثالثاً: إشعار الآخرين بالقدرة

إن الذات حينما تكون مدفوعة بهذا العقل المستغل من قبل الأيديولوجيا، وهذا الولع الذي يصل إلى حد الأسطورة بذاتها أملاً في البقاء؛ فإنها تريد أيضاً أن تشعر الآخر بوجودها وقدرتها على التحرك، فهي تتظاهر بادعاء وراء الحق والحقيقة كحجة من أجل البقاء، وهي لا تريد الحقيقة إلا إذا كانت في جانبها ولا تكاد تراها قد صارت في جانب خصمها الذي تراه يهدد بقاءها حتى تتنكر لها، مستخدمة في ذلك الوسائل المشروعة وغير المشروعة كافة.

وقد يتخذ ذلك أكثر من مسار يمكن اختصارها إجمالاً في مسارين اثنين:

المسار الأول: الادعاء بأن الجميع بما في ذلك الخصوم والأعداء يلهثون وراءها من أجل المصالحة، فتطرح مبادرات من جانب أحد أعضائها، فتنهال عليه سهام الجماعة نفسها، ويطلقون على المبادرة "هرطقة"، ثم تمضي الجماعة إلى التأكيد قولاً واحداً "لا مبادرات"، وأنها ماضية في الحراك الثوري المتصاعد حتى النصر على حد زعمها، ولكن الهدف هو ضرورة أن يشعر الجميع ببقائها وفي مقدمتهم الخصوم.

المسار الثاني: التحريض وممارسة العنف، وهنا تبدو "الذات الإخوانية" وهي تبحث عن استعادة أسطورتها، بماضيها المشحون بالمحن والضربات من أجل هدف البقاء، في عزلة تامة عن الواقع وعجز عميق عن صياغة أي محاولة للفكاك مما علق بها، وفي مواجهة آخر دائماً هو المأزوم أو المضطرب أو الفاسد- وفقاً لأدبياتها-، فيكون التحريض وممارسة العنف المتأصل لديها وسيلة أخرى لإشعار الآخر بأنها على قيد الحياة ولم تمت، في وقت يبدو الدين فيه وكأنه يضطلع بإعادة ترتيب الهويات في الإقليم ككل.

إن رسالة "الذات الاخوانية" في هذا الإطار هي ذاتها في كل المحن التاريخية التي مرت بها، وهي أنه إذا لم تتم إعادة الاعتراف بها "لتكون فتنة وفساداً كبيراً"، على حد قول المرشد الثالث للجماعة عمر التلمساني في أواخر عهد الرئيس السادات، حينما زج السادات بكل أقطاب المعارضة، ومن ضمنها الإخوان المسلمين في السجون، فكانت رسالته "ولئن لم يفعلوا لتكونن فتنة وفساد كبير من جراء ترك الجو خالياً من حراسة الأمناء المخلصين، الأمر بين يدي المسؤولين، والتاريخ لا يرحم ثم قبل التاريخ وبعده، فإن الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها عليهم، فماذا يرى المسؤولون؟"

وهكذا طالما ظلت "الذات الإخوانية" تتعامل بمنطق "أيها الساسة الشيوخ .. إننا نريد أن نسير فأفسحوا لنا الطريق"، وفقاً لمقولة مصطفى السباعي مؤسس الجماعة في سوريا، أو تعمل على "أسطرة" ذاتها لتظل تعتمد التكرار، والتكرار – مقابل النمو – وهو صفة الموت الرئيسية لأن الشيء الميت هو الذي يتوقف عن النمو ويتحلل أو يظل يكرر وجوده.